روائع القصص العالمية

ديفيد كوبرفيلد

تشارلز ديكنز

أكاديميا

روائع القصص العالمية

ديفيد كوبرفيلد

إعداد

ماغالي الحاج

أكاديميا
بيروت - لبنان

ديفيد كوبرفيلد

حقوق الطبعة العربية © أكاديميا إنترناشيونال، 2017

ISBN: 978-9953-37-936-4

جميع الحقوق محفوظة
All Rights Reserved

الناشر

أكاديميا إنترناشيونال
فردان، شارع رشيد كرامي
بناية بنك بيبلوس، ط8
ص.ب 113-6669
بيروت 1103 2140 لبنان

Academia International
Verdun,Rashid Karameh St.
Byblos Bank Bldg., 8th Fl
P.O. Box 113-6669
Beirut 1103 2140 Lebanon

هاتف Tel. (+961 1) 800811 - 862905 - 800832
فاكس Fax (+961 1) 805478

بريد إلكتروني E-mail academia@dm.net.lb
info@kitabalarabi.com

www.academiainternational.com
www.kitabalarabi.com

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال ش.م.ل.
ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International S.A.L.

المحتويات

أبصرت النور..... 4
أمسيتُ يتيمًا 8
معاناتي..... 12
العودة إلى المدرسة..... 17
عطلة مميّزة..... 20
مهنتي 24
مأساتان 28
الخالة بِتْسي تفقد كلّ شيء 32
مشاكل أورياه هيب 37
زواجي بدورا..... 40
العثور على إميلي..... 42
زواجي بآنياس..... 46

أبصرت النور

وُلدتُ يومَ جُمُعةٍ، عند مُنْتَصَفِ الليلِ، في مَنْطَقةِ بلاندرستون في سافولك. تُوُفِّي أبي قبلَ سِتّةِ أَشْهُرٍ من وِلادتي. وكانتْ خالةُ أبي، الآنسةُ بِتْسي تروتوود، تُحبُّ أبي حُبًّا جَمًّا وتنتظرُ وِلادتي بفارغ الصَّبْرِ كي تُعينَ أُمّي في تَرْبيةِ فتاة. فجاءتْ خيبةُ أَمَلِها كبيرةً حين عرفتْ أنّ الطفلَ صَبِيٌّ. عادتْ إلى بَيْتِها الصّغيرِ في دوفر من دونِ أن تراني.

أَذكرُ جيّدًا أُمّي الجميلةَ ومُمَرّضَتَنا الكبيرةَ والسَّمينة، بيغوتي. كانتْ أُمّي امرأةً رقيقةً ولطيفة، تُحبُّني كثيرًا وتُمْضي وقتَها في اللَّعِبِ معي ومُساعدتي في دُروسي.

ذاتَ ليلة، جلَسْتُ مع بيغوتي في الدارِ الصّغيرة. وصلتْ أُمّي مَعَ رجلٍ يُدعى السيّد موردستون، وهو رجلٌ وسيمٌ وأسمر، يتردّدُ إلى منزلِنا منذُ فترة. لم أكنْ أستلطفُه، وفَهِمْتُ من نظراتِ بيغوتي أنّها تُشاركُني الشعورَ نفسَه.

بعد أشهر قليلة، دَعَتْني بيغوتي إلى قضاءِ أسبوعَيْنِ في منزلِ أخيها في يارموث.

«رائع! ولكنْ كيف لي أن أَتْرُكَ أُمّي وَحْدَها هنا؟»

«ستذهبُ أُمُّكَ إلى مكانٍ آخر،» أجابتْني بيغوتي بنظرةٍ غريبة.

بعد بضعةِ أيّام، انطلقتُ مع بيغوتي إلى بيتِ أخيها. وكان السيّدُ بيغوتي يعيشُ مع ابنِهِ هام وفتاةٍ يتيمةٍ اسمها إميلي. وكانوا يَسْكُنون في منزلٍ يُشبِهُ السّفينةَ القديمةَ! أمضَيْتُ الأسبوعَيْن وأنا ألعبُ مع الولدَيْن.

وحين عُدْتُ إلى مَنْزلي، اكتشفتُ أنّ كُلَّ شيءٍ قد تغيّر. تزوّجتْ أُمّي السيّدَ موردستون الذي سَيْطرَ مع أختِهِ على البَيْت. فَقَدَتْ أُمّي سُلْطَتَها إذًا وما عُدْتُ أشعُرُ أنّي في بيتي.

كان السيّدُ موردستون صارمًا جدًّا. كنتُ أكرهُه، وكانت أمّي تخافُ منه. أمّا أُخْتُه فلم تكنْ تُحبّني، بل تُحرّضُ أخاها ليُرسِلَني إلى مدرسةٍ داخليّة.

ذاتَ يوم، غَضِبَ السيّدُ موردستون لأنّي لا أحفظُ دُروسي جيّدًا، فضربَني بعَصاه وأقفلَ عليَّ بابَ غُرْفتي خمسةَ أيّام. بكتْ أُمّي كثيرًا ولكنّه لم يأذَنْ لها برؤيتي.

فيما بَعْدُ، أرسلني لأدرسَ في مدرسةٍ قُرْبَ لُنْدُن. لم يسمحِ السيّدُ موردستون لأمّي المسكينةِ بقضاءِ بعضِ الوقتِ معي قبل رحيلي، ولم تستطِعْ حتى أن تأخُذَني بين ذراعَيْها أو أن تودّعَني. وعندما كنتُ على وشك الخروج من المنزل، أسرعت بيغوتي وأعطتني رسالةً من أُمّي، ثمّ عانقتْني ووعدتْني بأن تهتمَّ بوالدتي.

أمسيتُ يتيمًا

وصلتُ إلى لندن ورحتُ إلى مدرسةِ دارِ سالمٍ مع أُستاذٍ اسمه السيّد ميل. وهناك، اكتشفتُ أنّ كُلَّ التلاميذِ رحلوا في العُطْلة. كُنْتُ وَحْدي ولكن بدأتُ دُروسي مع السيّد ميل.

ما لبث التلامذةُ الباقون أن عادوا. عرّفني السيّدُ ميل إلى المدير، السيّدِ كريكل. كَرِهْتُه فورًا. كانَ قاسيًا جدًّا ويَجِدُ لذّةً في ضَرْبِ الأطفال. وغالبًا ما كانَ يتلقّى صَبِيّ، اسْمُه تومي ترادلز، معظم صَفَعاتِ السيّدِ كريكل. وعلى الرّغْم من ذلك، لم يفقِدْ تومي مِزاجَه المَرِح. وَحْدَهُ التلميذُ جايمس ستيرفورث كان ينجو من صفعات السيّدِ كريكل: فهو الصبيُّ الأكثرُ شعبيةً في المدرسة. يَكْبُرُني ستيرفورث بأربعةِ أعوامٍ، لكِنّ ذلك لم يَمْنَعْنا من أن نُصْبحَ صديقَيْن مُقَرّبَيْن.

مع اقترابِ العُطلةِ الجديدة، خِفتُ ألاّ يُرْسلَ السيّدُ موردستون في طلبي، ولكن سُرْعان ما وَصَلَتْني رِسالةٌ من أُمّي تُعْلِمُني فيها أنّني سأعودُ إلى المَنْزل. فَرِحْتُ كثيرًا وكنتُ مُشْتاقًا إليها.

ما أروعَ العودةَ إلى المنزل. دخلتُ وسمعتُ أُمّي تُغنّي وتُدَنْدِن. كانتْ جالسةً قُرْبَ المِدْفأة تُطعمُ مولودًا جديدًا. إنّه أخي! فرِحتُ لِرُؤْيَتِها بعد وقتٍ طويلٍ وكذلك للِقاءِ أخي الصغير.

ذاك النهار، خرج السيّدُ موردستون وأختُه من المنزل، فاسْتَمْتَعْتُ كثيرًا برفقةِ أُمّي وبيغوتي. تناولنا العشاءَ وجلسنا قُرب النارِ نَضْحَك ونتحادث، كما كُنّا نفعلُ في الماضي!

كان السيّدُ باركيس، السائق، يودُّ الزواج من بيغوتي. فقلتُ لها: «طلب منّي السيّد باركيس أن أقولَ لكِ: باركيس ينوي...»

ضَحِكَتْ بيغوتي وقالت: «آه، لا أودُّ أن أتزوّجهُ أو أتزوَّج أحدًا غيْرَه. سأهتمُّ بك، وحين أشيخُ آتي لأعيشَ معكَ، يا ديفيد!»

فهتفتُ: «ستعيشين كمَلِكة!»

كانتْ تلك الليلةُ أجملَ أوقاتِ عُطْلتي. فيما بعدُ، عاد السيّدُ موردستون وأختُه. لم أرتَحْ لهما وكنتُ أخافُ بحُضورِهما. في نهايةِ العُطلة، فرِحتُ بالعودةِ إلى المدرسةِ على الرُّغْم من ابتعادي عن أمّي.

بَعْدَ شهرَيْن، في عيدِ ميلادي العاشر، ناداني السيّدُ كريكل وأَعْلَمني أنّ أُمّي مَرِضَتْ وتُوُفِّيت. ثمّ، سُرْعان ما تُوُفّي أخي الصغيرُ أيضًا. عندئذٍ، عرفتُ أسوأَ أشكالِ الحُزْن.

10

ذهبتُ حزينًا إلى المنزلِ لأشاركَ في مراسم الدَّفْن. بَدَتْ بيغوتي تَعِبَةً وغاضبة. أَخَذَتْني بين ذراعَيْها وأخذت تواسيني. وقفتُ أمامَ قبرِ أُمّي وشعرتُ أنّي ضائعٌ ووحيد. أَمْسَيْتُ يَتيمًا!

بعد الدَّفْن، أقالَ السيّدُ موردستون بيغوتي. فانْصَرفَتْ وتزوّجتْ باركيس. وقبلَ ذهابِها، أكّدَتْ لي أنّها ستبقى إلى جانبي إذا احْتَجْتُ إليها.

تركني الجميعُ لأسابيعَ عِدّة. كنتُ آمَلُ العودةَ إلى المدرسةِ في أقربِ وَقْتٍ مُمْكن. ولكنّ السيّدَ موردستون قالَ لي: «لا أملكُ الإمكاناتِ لإرسالِكَ إلى المدرسة. ولذلك قرّرتُ أن تَعْمَلَ في مُسْتودعٍ في لندن. ستتقاضى سَبْعةَ شِلنات في الأسبوع.»

وهكذا، في العاشِرةِ من العُمر، انتقلتُ إلى لندن للعمل.

11

معاناتي

بدأتُ العملَ في مُسْتودع «موردستون وغرينبي»، وهو عبارةٌ عن منزلٍ قديمٍ مُتهدّم مُسْتَوْطَن بالفئرانِ والغُبار. وكانت مُهِمَّتي غَسْلَ قناني النَّبيذِ ولَصْقَ الاسْمِ ووضعَ الأغطيةِ ثمّ تَرْتيب الزُّجاجاتِ في الصناديق. وكان يعملُ معي الكثيرُ من الصِّبْيَةِ. وقد خابَ ظَنّي عندما اكتشفتُ أنّهم لم يتلقّوا أيَّ تعليم. هذا يَعْني أنّني لن أتعلّمَ أيَّ جديدٍ منهم أو أتأثّر بثقافتهم.

كنتُ أعيشُ على الخُبْزِ والزُّبْدَةِ وأتناول أحيانًا القليل من اللَّحْمِ أو الدجاج. واعتبر ذلك بمَثابَةِ هديّةٍ لي. من جهةٍ أُخرى، كان صاحبُ العملِ يَحْترمُني كثيرًا، فأنا لا أتذمّرُ إلى أحدٍ من وَضْعي. وكنتُ نزيلاً في بيتٍ يَمْلِكُه السيّدُ ميكاوبر – وهو رجل مَرِحٌ مُتوسّط العُمُر، يعيشُ مع زوجتِه وأولادِه الأربعة. كان المنزلُ صغيرًا وغيرَ مُرَتَّب. إلاّ أنّ عائلةَ ميكاوبر كانت تُعاملُني بلُطْفٍ فائقٍ على الرُّغْم من فَقْرِها، وكانوا يدعونني في بعضِ الأحيانِ إلى تناوُلِ العَشاء مَعَهُم. كنت أُحبُّهم كثيرًا.

كانتِ العائلة واقعة تحت دَيْنٍ كبير، وكان الناسُ يأتون إليهم بانتظام مُطالبينَ بأموالِهِم. ذاتَ يوم، تمّ توقيفُ السيّد ميكاوبر وإرساله إلى السِّجْن. وسُمِحَ لعائلتِه بالانضمام إليه فذهبَ الجميعُ معه. فبقيتُ في المنزلِ وحيدًا من دون رفيقٍ.

كنتُ أخافُ العيشَ وَحْدي، وتذكّرتُ حَديثَ أُمّي وبيغوتي عن خالةِ أبي، الآنسةِ بتْسي، فقرّرتُ اللجوءَ إليها. كتبتُ رِسالةً إلى بيغوتي أسألُها عن عُنوانِ الآنسةِ بتسي. فأجابَتْني وأرسلتْ لي نِصْفَ جُنَيْهٍ كي أتمكّنَ من تَحَمُّلِ مصاريفِ الانتقالِ إلى دوفر حيث تعيشُ الآنسةُ بتسي. لكنّ المالَ سُرِقَ مني ولم أَعُدْ قادرًا على دَفْعِ تَكْلِفَةِ الرّحلة، فصرتُ أمشي في النهار وأنامُ في الحقولِ أو تحت أكوامِ التِّبْن في الليل.

بعد سِتّة أيّامٍ، وصلتُ إلى منزلِ الآنسةِ بتسي وأنا وَسِخٌ ومُرْهَق. نادَيْتُها بصوتٍ مُرْتَجِف: «أرجوك، خالتي بتسي، هل يُمْكِنُني الدُّخول؟ أنا قريبُكِ، ديفيد كوبرفيلد.»

كنتُ خائفًا مُتَرَدّدًا لأنّني لم أكنْ أعرفُ إنْ كانتْ لطيفةً أم لا. أسرعتِ الخالةُ بتسي وأَدْخَلَتْني. وبعد أن غَسَّلَتْني وأطعمَتْني، أخبرتُها قصّةَ زواجِ أُمّي الحزينِ بالسيّدِ موردستون.

كانت الخالةُ بتسي تُحِبُّ أُمّي كثيرًا، فغضِبتْ عندما أخبرتُها عن مُعاملةِ عائلةِ موردستون لنا.

«آه! هذا القاتل! سأكتبُ له غدًا!» صرختِ الخالةُ بتسي.

«إذا اكتشفَ أنّني هنا، سيأتي ليأخُذَني!» أجبتُ بخوف.

«سنرى حين يأتي،» قالت لي.

كان أحدُ أصدقاءِ الخالةِ بتسي يعيشُ معها – وهو رجلٌ لطيفٌ اسمه ديك. عاملتني الخالةُ وصديقُها برِقّةٍ فكنتُ سعيدًا جدًّا. ثمّ، ذات نهار، وصل السيّدُ موردستون وأختُه. رُحْتُ أرتعشُ خوفًا فيما كان يُحاولُ إقناعَ الخالةِ بتسي بأنّني ولدٌ عنيدٌ وعنيف، وأنّ تعليمي يتطلّبُ الكثيرَ من الحزم. خِفتُ أن تقتنعَ الخالةُ بتسي بتلك الادّعاءات.

«سآخذُه وأعامِلُه بأفضلِ طريقةٍ تُناسبه،» قال السيّدُ موردستون.

«كلامٌ تافه!» صاحت الخالة. «لقد تسبَّبت قساوتُكَ تِجاه والدةِ ديفيد بموتِها. وقد أَرْسَلْتَ ولدًا صغيرًا ليعمل! يجبُ معاقبتُك!»

ثمّ سألتني ما أريدُ أن أفعل.

فرجوتُها: «خالتي بتسي، اسمحي لي أن أعيشَ معك. إنهما يكرهاني ويُعاملاني بسوء.»

«إذا بقيَ ديفيد معكِ، لن أتعرّفَ إليه أبدًا بعد الآن!» صرخ السيّدُ موردستون قبل أن ينصرف.

وما إن ذهبا حتى ركضتُ وعانقتُ الخالةَ بتسي وصافحتُ السيّدَ ديك وشكرتُهُما من كلِّ قلبي. ثمّ غيّرتِ الخالةُ بتسي اسمي إلى تروتوود كوبرفيلد وصار الجميعُ ينادونني تروت!

هكذا انتهتْ مُعاناتي وانطلقتُ في حياةٍ جديدة.

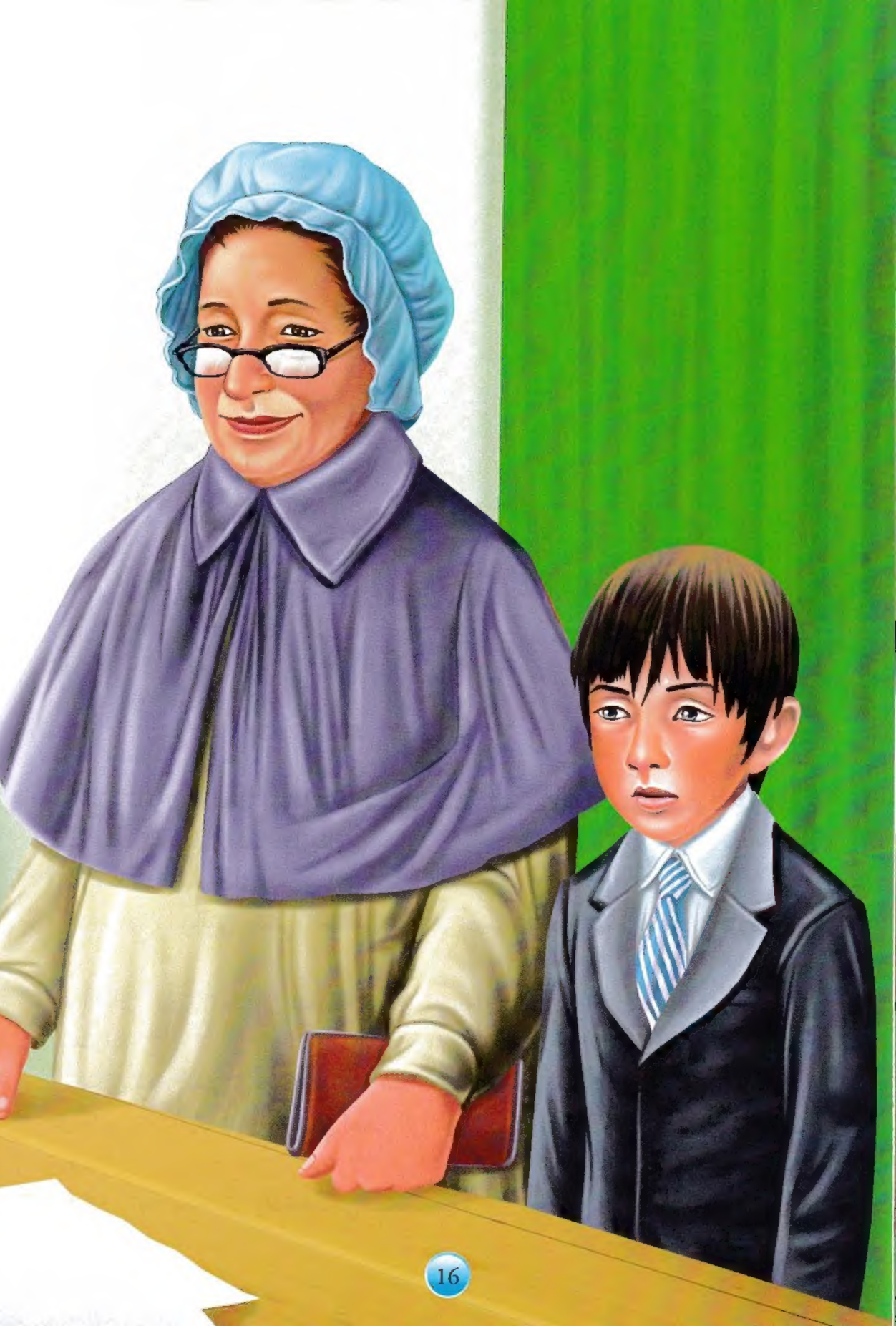

العودة إلى المدرسة

ذاتَ يوم، قَرّرتِ الخالةُ بِتْسي أنّ عليّ أنْ أذهبَ إلى مدرسةٍ في كانتربري، فقالت لي: «تروت، علَيك أن تُكْمِلَ دراسَتَك.»

في صباحِ اليوم التالي، تَوَجَّهْنا إلى كانتربري لنزورَ مُحاميَ الخالة بتسي، السيّدَ ويكفيلد، ونسألَه عن أفضلِ مدرسةٍ لي. فتحَ البابَ صبيٌّ نحيلٌ، شعرُه أحمرُ، وعمرُهُ حوالي خمس عشرة سنة. وكان وجهُهُ يُشبه الهيكلَ العظميَّ من شدّةِ الضَّعْفِ وغيابِ الرموش والحاجِبَيْن.

دخَلْنا والتقينا السيّدَ ويكفيلد، وكان رجلاً جميلاً طاعنًا في السِّنّ. فسأل:

«عزيزتي الآنسة تروتوود، ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟»

عَرَّفَتْني الخالةُ بتسي إليه وسألَتْه: «هل يُمْكِنُكَ أن تَنْصَحَنا بمدرسةٍ تُناسِبُه؟»

«لمَ لا تَخْتارينَ مدرسةَ الدكتور سترونغ للصِّبيان؟ وبما أنّها ليستْ مدرسةً داخليّة، يُمْكنه أن يبقى عندي ويعودَ إلى البيت في نهاية الأسبوع.»

قبلنا اقتراحه شاكرين. وهكذا، تركتْني الخالةُ بتسي في منزلِ السيّد ويكفيلد. وقبل أن تنصرف، أوْصتني بأن أكون لطيفًا ومُؤدّبًا ودائمًا صادقًا.

هناك، التقيتُ بابنةِ السيّد ويكفيلد، آنياس. وهي فتاةٌ جميلةٌ مَرِحةٌ وسعيدة، ومن عمري، تُحبّ أباها كثيرًا. فصرنا صديقَيْنِ حميمَيْن.

كنتُ فرحًا ببقائي في بيتِ السيّدِ ويكفيلد، ولكنّ الصبي أورياه هيب كان يترك فيّ انطباعًا غريبًا. لم أكنْ مُرتاحًا له ولم أثقْ به كثيرًا.

في صباحِ اليومِ التالي، أخذني السيّدُ ويكفيلد إلى مدرستي الجديدةِ حيث التقيتُ بأستاذي، الدكتور سترونغ وزوجتِه الجميلةِ آنّ.

كان الدكتورُ سترونغ أستاذًا بارعًا. وكان لطيفًا مع كلّ التلامذةِ وكانوا جميعًا يُحبّونه ويحترمونه كثيرًا. كان قد انقضى وقتٌ طويلٌ منذ آخرِ مرّةٍ تواصلتُ فيها مع صِبْيان في جوٍّ مدرسيّ. شعرتُ براحةٍ تامّةٍ وأصبحتُ متفوّقًا في الصفّ. كنت أدرسُ باجتهادٍ وسمّاني رفاقي «الصبيّ الذكيّ». وكان الدكتور سترونغ يتحدّثُ أيضًا عنّي قائلاً إنّي «باحثٌ شابٌّ واعدٌ»!

صِرْتُ أشعرُ بميلٍ تجاه آنياس. وكان يلفتُني إخلاصُها لأبيها، وقد عرفتُ أنّها قرّرتِ التعلُّمَ في البيتِ لكي تبقى إلى جانبه.

مرّ الوقتُ وأصبحتُ شابًّا في السابعة عشر من العمر. كانت الخالةُ بتسي غالبًا ما تُردّد: «أنت صورةٌ حيّةٌ عن أُمّك مع سِماتٍ من أبيك انطبعت فيك. يَجدرُ بك أن تبقى صارمًا وحازمًا وثابتًا في أخلاقك.»

في نهايةِ أيامي المدرسيّة، تكلّمتُ مع الخالةِ بتسي بشأنِ مِهْنتي في المُسْتقبل. لم أستطعْ أن أتّخذ قرارًا فاقترحتْ عليّ أن أذهبَ في عُطْلةٍ قصيرةٍ أستجمِعُ فيها أفكاري. قرّرتُ أن أزور عائلة بيغوتي في يارموث ثمّ الذهاب إلى لندن.

وقبل أن أنطلق في رحلتي، ودّعتُ عزيزتي آنياس وأباها. أمّا أورياه هيب فبدا سعيدًا برحيلي.

عطلة مميّزة

حين استقلّيتُ الحافلة في طريقي إلى لندن، كنتُ شابًّا متعلّمًا وأنيقًا وبحوزتي نُقودٌ كثيرة.

فقلتُ في نفسي: « كم أنا مختلفٌ عن الصَّبيِّ الذي أتى إلى هنا منذ بضعِ سنين من دونِ قِرْشٍ واحد.»

لا شكّ أنّ الأحوالَ تغيّرتْ جَذْريًّا! وكنتُ مَمْنونًا للخالةِ بِتْسي لاهْتِمامِها بي.

عند هُبوطِ الليل، توقّفتِ الحافلةُ أمام فُنْدُقٍ في حَيِّ «تشارنغ كروس». دخلتُ لأرتشفَ فنجانَ قهوة. وهناك، لمحتُ شابًّا وسيمًا وأنيقًا، فهتفتُ له:

«ستيرفورث! أتذكرني؟»

«يا إلهي! أنت ديفيد كوبرفيلد الصغير!» صرخ الشابُّ بتعجّب.

سَعِدتُ بلقاءِ صديقٍ من أيّام المدرسةِ بعد سنواتٍ طويلة. وفهمتُ منه أنّه يُتابعُ دُروسَهُ في جامعةِ أُكسفورد وهو في طريقِهِ لزيارةِ أُمِّه. دعاني لتمضيةِ بعضِ الوقتِ في منزلِهِ في هايغيت.

«يُشَرِّفُني ذلك. ثمّ يُمكنكَ أن تُرافِقَني إلى يارموث. سأقومُ بزيارةٍ إلى عائلةِ بيغوتي،» قلت له.

وما لَبِثْنا أن وصلنا إلى هايغيت. تعرّفتُ بالسيّدة ستيرفورث، وهي امرأةٌ جميلةٌ وعجوز، وبرفيقتِها الآنسةِ روزا دارتل. أمضيتُ فترةً رائعةً هناك.

ثمّ ذهبتُ برفقة ستيرفورث إلى يارموث. حَجَزْنا في فُندقٍ وتوجّهتُ وحدي إلى منزلِ مُمرّضتي القديمة.

لم ترَني بيغوتي منذُ سبعِ سنواتٍ ولكنّي كنتُ أراسِلُها طِيلةَ هذا الوقت. قرعتُ الجرسَ ففتحتْ بيغوتي البابَ وسألتْ بتهذيب: «كيف أخْدِمُكَ، يا سيّدي؟»

فأجبتُها: «أنا أبحثُ عن معلوماتٍ تخُصُّ منزلًا في بلاندرستون – منزلُ كوبرفيلد تحديدًا!»

فهتفتْ: «آه! عزيزي ديفيد!» ثمَّ تبادلْنا القُبُلاتِ ودخلنا لنرى باركيس مُمدّدًا في الفراشِ بسببِ داءِ المفاصل. حيّاني باركيس بفرحٍ عظيم. وجلسنا نحن الثلاثةُ معًا نتحادثُ طويلاً ونستذكرُ الماضي الجميل.

بعد ذلك انضمَّ إلينا ستيرفورث وذهبْنا للقاءِ السيّدِ بيغوتي وهام وإميلي.

كانوا جميعًا جالسينَ قُرْبَ النارِ، وهام وإميلي يُمسك كُلٌّ منهما بيد الآخر. رآني هام وقفز واقفًا ثم صاحَ قائلًا:

«هذا الأستاذُ ديفيد!»

أعلمني هام بخجلٍ أنّه وإميلي مخطوبانِ وأنّهما على وَشْك الزواج. هنّأناهُما ورُحْنا نتبادلُ

الأحاديثَ ضاحكين. إلا أنّي لاحظتُ أنّ إميلي كانت تُحدّقُ بستيرفورث. وقد بدا هو أيضًا مُنْجذبًا إليها.

فيما بعد، أشارَ ستيرفورث في حديثِهِ إلى أنّ إميلي يُمْكنها أن تجدَ لنفسِها رجلاً نبيلاً حقيقيًّا. لم أُحبّذْ ملاحظتَه وقرّرتُ ألاّ أُعيرَها انتباهي.

خلال إقامتِنا أَبْحَرَ ستيرفورث في يارموث، مرّاتٍ عدّةً مع السيّد بيغوتي الذي قال لي إنّ رفيقي بحّارٌ ماهر.

أمّا أنا فكنت أتردَّدُ كثيرًا إلى منزلِ طفولتي في بلاندرستون. لم تعدْ عائلةُ موردستون تعيشُ هناك. وقفتُ عند قبر أبي وأمي وأخي الصغيرِ وتملّكني حزنٌ شديد.

ذاتَ ليلة، قصدتُ منزلَ السيّدِ بيغوتي ورأيتُ ستيرفورث جالسًا قُرْبَ المِدفأة. حين رآني، ابتسمَ وقال: «اشتريتُ قارِبًا وسيهتمُّ السيّدُ بيغوتي به في غيابي. أسميتُه 'إميلي الصغيرة'.»

تساءلتُ: لماذا أطلقَ ستيرفورث اسم «إميلي» على قاربِهِ؟ لكن، مرّةً أخرى، لم أُعيرَ الأمرَ اهتمامًا.

مهنتي

بعد قضاءِ أسبوعَيْن كاملين في يارموث، استقلّينا، أنا وستيرفورث، حافلةَ العودة.

وفي الطريق، كشفتُ لستيرفورث ما يدورُ في بالي: «أُفكّر بأن أصبحَ مُحاميًا.» فشجّعني على ذلك. ثمّ انطلقَ إلى هايغيت وعُدْتُ أنا إلى لندن كي أرى الخالة بتسي.

حين التقيتُها، قلتُ لها: «خالتي العزيزة، أفكّرُ بالمحاماةِ كمِهْنةٍ لي. ولكن ألا يتطلّبُ ذلك مالًا كثيرًا؟»

فأجابَتْني: «تروت، لقد دَخلْتَ إلى حياتي وملأتها بحُبّك. إنّ كُلَّ ما أفعلُه من أجلِكَ غيرُ كافٍ!»

عانقتُها وشكرتُها من كُلِّ قلبي. وفي اليومِ التالي، ذَهَبْنا إلى مكتبِ وكيلِ الخالةِ بتسي، سبينلو وجوركنز. وكان القرارُ أن يسمحا لي في البدايةِ بقضاء فترةٍ تجريبيّةٍ لمُدَّةِ شهر. وكان عليَّ أن أدفعَ لهما كي أعملَ معهما.

انتقلتُ إلى بيتٍ جديدٍ أعيشُ فيه وحدي كرجلٍ راشد. وكان بَيْتي يُطِلُّ على النهر، فأحبَبْتُ العيشَ هُناك. غيرَ أنّي كنتُ أشعرُ بالوَحْدةِ في بعضِ الليالي. وكنت أشتاقُ إلى صديقتي العزيزة آنياس. فمعها أتحدّثُ عن كلِّ شيءٍ – عن الدراسةِ والمشاكلِ والأحلامِ والآمال.

بعد أيّامٍ قليلة، وصلتْني رسالَةٌ منها. كانتْ في لندن مع أبيها وأورياه هيب. ذهبتُ إليهمْ في زيارةٍ واكتشفْتُ أنّ أمْرًا ما يُقلقُ آنياسَ كثيرًا. فأعلمتْني أنّ أورياه هيب أقنعَ والدَها في أن يُصْبِحَ شريكَه في العمل:

«ها هو هيب يضعُ يدَهُ على كلِّ شيءٍ وقد أمسى أبي تَحْتَ رَحْمَتِه.»

فيما بعدُ، قال لي هيب إنّه يُحِبُّ آنياسَ ويريدُ أن يتزوّجَها. أزعجتْني فكرةُ اقترانِ هذا الإنسان بعزيزتي آنياس.

فكّرتُ بخُطَطٍ واستراتيجيّاتٍ مُختلفةٍ لإبعادِ آنياس عن أورياه هيب ولكنْ من دون جَدْوَى.

في إحدى نهاياتِ الأسبوع، دعاني السيّدُ سبينلو إلى منزلِهِ في الرّيفِ لكي نَحْتَفِلَ بوظيفتي الجديدة في شَركته. هناك، تعرّفتُ بابنتِه الجميلةِ دورا. كانت دورا فتاةً ناعمةً وأنيقةً فَوَقعتُ تحت سِحْرِها قبل أنْ أُكلِّمَها. فيما بعدُ، قمتُ بنُزْهةٍ معها ووقعتُ في غرامِها أكثر فأكثر. شعرتُ أنّها استَلْطَفتْني أيضًا. كانتْ نهايةُ الأسبوعِ تلك من أجملِ أيّامِ حياتي.

ذاتَ ليلة، وبينما كنتُ أَتَعَشّى مع زُملائي في العمل، لمحتُ صديقًا قديمًا يُدعى تومي ترادلز. تقدّمتُ منه وألقيتُ التحيّةَ. فَرِحَ جدًّا برؤيتي وقرّرنا أن نلتقيَ في اليوم التالي.

ذهبتُ إلى منزلِه الذي يقعُ في حيٍّ شعبيٍّ قليلًا. ذكّرني بأيّامِ إقامتي مع عائلةِ ميكاوبر.

ثم قادني ترادلز إلى غرفتِهِ حيث تبادلْنا الأخبارَ، وعرفتُ أنّ أهلَ تومي قد توفّوا وأنّه يتابعُ دراستَه في مجالِ الحُقوق. كان يَقْبَلُ بأعمالٍ صغيرةٍ من حينٍ إلى آخرَ كي يجنيَ لُقْمةَ عَيْشِه. وكان مُغْرمًا أيضًا بابنةِ الكاهنِ ويأمُلُ أن يتزوّجَها يومًا ما.

«أنا لا أجني الكثيرَ من المالِ، ولكنّي أعيشُ مع أشخاصٍ طيّبين جدًّا، عائلةِ ميكاوبر،» قال تومي.

«عائلة ميكاوبر! لقد عِشْتُ مَعَهُمْ مرّةً! أريدُ أن أراهم فورًا!» قلتُ بدهشةٍ كبيرة.

نزلتُ راكضًا وحيّيتُهم جميعًا. لم يعرفوني في البداية. ثمّ تكلّمنا عن الماضي بحماسة. وكانتِ العائلةُ تُعاني مرّةً جديدة من ضيقٍ ماديّ ولكنّ الجميعَ كانوا سُعداء. دعوتُهُمْ وتومي إلى العَشاءِ مساء الغد، وتمتّعنا بتناولِ الطعامِ معًا. وبعد رحيلِ ضيوفي، بقيتُ جالسًا قُرْبَ النارِ إلى أن وصلَ ستيرفورث.

«ستيرفورث! يا لها من مُفاجأة!» صرختُ بتعجّب.

أخبرني أنّه عائدٌ من يارموث، وبدا فَرِحًا لأنّ إميلي وهام لم يتزوّجا بعد.

وقبلَ أن أسأَلَهُ عن السَّبب، سلّمني رسالةً من بيغوتي. ثمّ قال لي: «لديّ خَبَرٌ سَيّئ. باركيس مريضٌ ولن يتسنّى له العَيْشُ طويلاً.»

أقلقني هذا الخبرُ كثيرًا، فقلتُ: «يجبُ أن أذهبَ إلى يارموث فورًا. عزيزتي بيغوتي تحتاجُ إلى مواساتي!»

أكملَ صديقي قائلًا: «تعالَ معي إلى هايغيت أوّلاً. سأزورُ أُمّي.»

لم أكنْ أرغبُ في الانْضمام إليه ولكنّي رَضَخْتُ لرغْبَتِه في نهايةِ المطاف. في اليومِ التالي، تَوَجَّهْنا إلى هايغيت. وهناك حيّتني الآنسةُ دارتل طارحةً عليّ سؤالاً غريبًا: «لماذا تُبقي جايمس بعيدًا عن المنزلِ كلَّ هذهِ الفَتَراتِ الطويلة؟»

فأجبتُها: «التقيتُ جايمس البارحةَ مساءً بعد وقتٍ طويل. لا أعرفُ أين يُمْضي وقتَه.»

دَفَعَتْني هذه المُحادثةُ إلى التفكيرِ بأنّ ستيرفورث يقولُ لأمّه، بشكلٍ أو بآخرَ، إنّه يُمْضي وقتَهُ معي.

بدا ستيرفورث طيلةَ النهارِ مَهْمومًا. قلتُ له تلك الليلة إنّني سأذهبُ في الغد، فقال لي: «ديفيد، إذا سَمِعْتَ خبرًا سيّئًا عنّي، أرجوك لا تترُكْ في ذِهْنك إلّا أحلى الذكريات.»

اضطربْتُ لكلامِ صديقي وأردتُ أن أفهمَ سَبَبَهُ، ولكنّني تخلَّيْتُ عن الفِكْرةِ مرّةً أُخرى. كنتُ أعرِفُ أنّ بيغوتي هي الأكثرُ حاجةً إليّ، وهكذا غادرتُ في اليومِ التالي إلى يارموث.

وصلتُ إلى منزلِ بيغوتي في الليل. أخذني السيّدُ بيغوتي إلى المطبخِ حيثُ وجدتُ إميلي جالسةً قُرْبَ النار. بدتْ مشغولةَ البال، علمًا أنّه قيلَ لي إنّها ستتزوّجُ هام في غُضون أسبوعين.

ما إنْ لمحتُ بيغوتي حتى أسرعتُ إليها وقبّلتها. بدأتْ تبكي وأخذتْني بين ذراعَيْها. ثمّ صَعِدْنا السلالمَ لنرى باركيس. وكان مُسْتلقيًا في فراشه. فاستنتجتُ فورًا أنّه يُشارف الموت. جلسْنا إلى جانبِهِ طويلاً.

فجأةً، فتحَ عينيهِ وبابتسامةٍ خفيفة، همس: «باركيس ينوي!» وبعد ثوانٍ قليلة، فارق الحياة.

مرّ يومُ المأتمِ ببطْءٍ شديد. وفي الليلِ، رُحْتُ إلى ميناءِ السُّفُنِ مع السيّدِ بيغوتي.

رآني هامُ وصرخ: «هربتْ إميلي مع الرجل الذي تُحِبُّ. إذا لم يتزوّجْها، لن تعودَ أبدًا.»

أصبْنا جميعًا بصدمة. سألَ السيّدُ بيغوتي بصوتٍ مُرْتجف: «مَنِ الرجل؟»

نظرَ إليّ هامُ وأجابَ بتردُّد: «إنّه صديقُك، ستيرفورث الشَّرِّير! ولكنّي لا ألومُكَ يا ديفيد.»

حَزِنْتُ كثيرًا وعرفتُ أنّ صداقتي بستيرفورث قد انتهت. وفهمتُ ما عناه بكلامِهِ حين كُنّا في منزله.

«سأبحثُ عن إميلي. كان عليّ أن أُغْرِقَ هذا الرجلَ عندما كان على مَتْن قاربي!» هتفَ السيّدُ بيغوتي. وكان يُحبُّ إميلي كثيرًا وقد قرّر أن يستعيدَها إذا عَثَرَ عليها أو إذا رَجَعَتْ من تِلقاءِ ذاتها.

الخالة بِتْسي تفقد كلّ شيء

تركَ باركيسُ وصيّة. اكتشفتُ أنّ هذا الرجلَ أمضى حياتَهُ في جَمْعِ المالِ، الذي أصبح الآن يعود كله إلى زوجته. صارت بيغوتي إذًا تتمتّع بإرثٍ كبير. أخذتُها معي إلى لندن كي تنظّمَ أحوالَها.

وسُرْعان ما حان عيدُ ميلادِ حبيبتي دورا. أَخَذَنا والدُها في نُزْهةٍ في الطبيعة. واستمتعتُ جدًّا برفْقَتِها وطلبتُ يَدَها بَعْدَ أيّامٍ قليلة. وافقتْ على الزواجِ بي. وأَبْقَيْنا الأمْرَ سرًّا عن أبيها ولكنّي أخبرتُ آنياس وبيغوتي بالتطوّرات.

ذاتَ يوم، سرّتْني زيارةٌ مُفاجئةٌ لخالتي والسيّد ديك. كانت خالتي تَحْمِلُ حقائبَها كُلَّها وهرّتَها وعُصْفوريها.

عانقْتُ الخالةَ بِتْسي وهتفتُ: «كم يُسْعِدني استقبالُك هنا!»

قالتْ لي بعد أن احْتَسَتِ الشاي: «لعلّك تتساءلُ عن سَبَبِ زيارتي المفاجئة. جِئْتُ إلى هنا لأنّني أفلستُ. تَمَّ تأجيرُ منزلي في دوفر. فَقَدْتُ كُلَّ أموالي.»

حَزِنْتُ لمعرفةِ ما حدث، إلاّ أنّ الخالةَ بِتْسي قالتْ لي: «علينا أن نَسْعى لمُواجهةِ الوَضْعِ بشجاعة. عليك أن تبقى قَويًّا وتَعْتمدَ على نَفْسِك.»

ثمّ تابعتْ قائلة: «أخبرتْني بيغوتي أنّك خَطَبْتَ. أتظنُّ أنّك تُحِبُّ دورا؟»

«أظنّ!! يا خالتي، أنا أعشقُ دورا من كلّ قلبي!»

ابتسمتِ الخالةُ بتسي وذهبْنا كي ننام. لم يَغْمُضْ لي جَفْن. ورُحْتُ أتساءلُ إن كان وَضْعي الجديدُ يسمحُ لي بالزواجِ من دورا. كنت أَحْلُمُ بشراءِ منزلٍ وتوفيرِ أقصى السعادةِ لها.

بدا كُلُّ شيءٍ صَعْبًا في تلك اللحظة. وبالإضافةِ إلى ذلك، تساءلتُ إذا كانتْ دورا ستقبلُ بي بعد أن تعرفَ بإفلاسِ الخالةِ بتسي.

في اليوم التالي، أعلمْتُ السيّدَ سبينلو والسيّد جوركنز أنّني مُضْطرٌّ إلى إلغاءِ تدريبي لأنّه لم يَعُدْ بإمكاني تحمّلُ عِبْءِ التكاليف، غير أنهما كانا لطيفَيْن وقالا لي إنّه يُمْكِنُني أن أستمرَّ في التعلّم من دونِ مُقابل.

في طريقِ العودةِ مَشْيًا على الأقدام، كنت سارِحًا بأفكاري، عندما ناداني صوتٌ. التفتُّ فرأيتُ آنياس. فَرِحْتُ برؤيتِها واستفهمتُ عن سَبَبِ زيارتِها إلى لندن. فقالتْ لي إنّها جاءتْ برِفْقَةِ أبيها وأورياه هيب للقاءِ الخالةِ بِتْسي بعد أن وصلهم خبرُ مَشاكِلِها الماليّة.

شعرتُ بأن آنياس مُنْزعجةٌ جدًّا. وقالت لي عند سؤالِها: «يعيشُ هيب الآن في منزلِنا. أخشى أنّه يُخَطِّطُ لشيءٍ ما ضدّ أبي.»

وعَلِمْتُ منها أنَّ السيّدَ ويكفيلد أمسى تابعًا لهيب تمامًا وخاضعًا له في كُلِّ شيء.

فرحتِ الخالةُ بتسي كثيرًا برؤيةِ آنياس وأطلعَتْها على سَبَبِ فِقدانِها كُلَّ أموالِها. فَقَدِ استثمرتْها في سوقِ الأسْهُمِ بناءً على نصيحةِ السيّد ويكفيلد وأورياه هيب. لكن المَصْرِفَ أَفْلَسَ وخَسِرَ كُلُّ المستثمرين أموالَهُمْ.

ثمّ قالتْ لي آنياسُ: «ديفيد، أُستاذُك القديمُ، الدكتور سترونغ موجودٌ في لندن وهو يبحثُ عن سكرتير. هل تودُّ القيامَ بهذِهِ المُهمّة؟

كانت آنياسُ بمثابةِ ملاكي الحارس. فذهبتُ مباشرةً إلى الدكتور سترونغ. واتّفقنا على أن أعملَ ساعتَيْن صباحًا وثلاث ساعاتٍ مساءً وأبقى حُرًّا في عطلةِ نهايةِ الأسبوع.

صِرْتُ مَشْغولاً جدًّا. أستيقظُ عند الساعةِ الخامسةِ صباحًا وأعودُ عند التاسعةِ مساءً.

وجرى حَدَثٌ جميلٌ آخرُ: بدأ صديقُ الخالةِ بتسي، السيّد ديك، العملَ مع ترادلز، فصار ينسخُ وثائقَ قانونيّة بخطّه الجميلِ والواضح. وهكذا، بدأتِ المياهُ تعودُ إلى مَجاريها.

عادتْ بيغوتي إلى يارموث لتهتمَّ بهام. بكتْ حين افْتَرَقْنا وعَرَضتْ عليَّ المال، فرفضتُهُ شاكرًا.

ذهبتُ إلى دورا وأعلمتُها أنّني أَمْسَيْتُ فَقيرًا. وسألتُها إذا كان بمقدورِها أن تُحِبَّ مُتَسَوِّلاً. لم تصدّقْني بدايةً حين أخبرتُها أنّني مُفْلِس. وعندما اسْتَوْعَبَتِ الحقيقة، راحتْ تبكي لأنّها لا تريدُ أن تعيشَ حياةَ الفُقَراء. «لا تقلْ لي إنّك فقيرٌ ويجبُ عليك أن تَعْمَلْ!»

حاولتُ أن أُقْنِعَها بأهمّيةِ تعلُّمِ الطَّبْخِ والاهْتِمام بمصاريفِ العائلة، ولكنْ من دونِ فائدة. رفضت اقْتِراحي. وبعد أيّام قليلةٍ وقعتْ مأساة. فقد وقعَ السيّدُ سبينلو عن الحصانِ وتُوفّي. وذهبتْ دورا لتعيشَ مع عمّاتِها في بوتني ولم أعُدْ قادرًا على رُؤيتِها.

عندئذٍ توجّهتُ إلى كانتربري في زيارةٍ إلى آنياس والسيّدِ ويكفيلد. وبعد العَشاء، لاحظتُ أنّ هيب يُشجّعُ السيّدَ ويكفيلد على الشُّرْبِ أكثرَ من اللازم. انزعجتُ ولكن لم أَنْبِسْ بأيَّةِ كلمة.

فجأةً، قال هيب: «سيّد ويكفيلد، أُريدُ الزواجَ من آنياس.»

ولدى سماعِه هذه الكلمات، قفزَ السيّدُ ويكفيلد وصرخ: «لقد دَمَّرْتَ سُمْعَتي وأخذتَ بَيْتي وسرقتَ راحة بالي. لن أسمحَ لك بأن تتزوّجَ آنياس أيضًا!»

هُرِعَتْ آنياسُ إلى الغُرْفةِ وأخذتْ أباها إلى السرير. وحين نزلتْ، كانت عَيْناها حمراوَيْن. قلِقْتُ جدًّا عليها وقلتُ: «آنياسُ، يا أعزَّ صديقةٍ لي، لا تتزوّجي هيب من أجلِ عَمَلِ أبيكِ أو لأيّ سببٍ آخر.»

ابتسمتْ وأجابَتْني: «يجبُ أن أَثِقَ باللّه.»

وفي إحدى الليالي المُثْلِجة، وبينما كنتُ في طريقي إلى البيتِ بَعْدَ العَمَل، صادفتُ السيّدَ بيغوتي. لاحظتُ أنّه قد تقدّم في العُمْرِ وشابَ شعرُه. أخبرني أنّ إميلي تُرْسِلُ له المالَ ولكنْ من دون ذِكْرِ عُنوانِ مَسْكَنِها. وقد لاحقَها عَبْرَ أختامِ البريدِ واكتشف أنّها تعيش في ألمانيا. وحين سألتُهُ عن هام، قال لي: «إنه يعملُ بكدٍّ ولكنّه تأذّى كثيرًا.»

بعد أيّامٍ قليلة، انتقلتْ آنياسُ ووالدُها ليُقيما مع الدكتورِ سترونغ وزوجتِه. وجاءَ معهُما هيبُ كالعادة. بقوا هنالك طويلاً. صرتُ أَزورُهم بانتظامٍ لأُفْرِحَ آنياس. لاحظتُ أنّ هيبَ كان يُراسِلُ السيّدَ ميكاوبر كثيرًا. وذات يوم، وَصَلَتْني رسالةٌ من السيّدةِ ميكاوبر تُعَبِّرُ فيها عن قلقِها لأنّ زوجَها الحنونَ أمسى مُتَحفِّظًا وبعيدًا عنها وعن الأولاد.

بالطبع، نصحتُها بأن تتحلّى بالصَّبْر. ودفعتني كلماتُها إلى التفكير والقلقِ على حالِ السيّد ميكاوبر. كنت أشعُر بنوعٍ من الشَّرِّ في القضيّة. وارْتَبْتُ كثيرًا بشأن هيب.

زواجي بدورا

في ما خصَّ حياتي، كتبتُ إلى عمّاتِ دورا وسألتُهنّ إذا كان بإمكاني زيارتها، فسمحوا لي بذلك. صِرتُ أدرسُ وأعملُ خلالَ الأسبوعِ وأُمْضي نهايةَ أسبوعٍ جميلةٍ مع دورا. ذاتَ يوم، أخذتُ آنياسَ لأُعرّفَها بدورا. وجدتْ دورا آنياسَ مرحةً وذكيّةً فعانَقَتْها. سُرِرْتُ من كلِّ قلبي عند رُؤيةِ الفتاتَيْنِ مُتآلفتَيْن، كما فَرِحَتْ دورا باكتسابِها صديقةً جديدة.

حين خَرَجتْ آنياسُ مِنَ الغُرْفةِ قليلاً، سألتْني دورا لماذا أُغرِمتُ بها بينما يوجدُ بقربي شخصٌ مثل آنياس. ولم أَسْتطِعْ أن أفهمَ لماذا لا يُمكِن لأحدٍ أن يَنجوَ من الوقوعِ بِحُبِّ دورا.

كنّا، دورا وأنا، سعيدَيْن جدًّا. وما إن بلغت السنَّ القانونيّة، أيّ الحادية والعشرين، حتى تزوّجنا.

كانتْ دورا حنونةً ومليئةً بالعاطفة، ولكن لم يكنْ لديها أدنى فكرةٍ عن إدارة المَنْزل. وبدل أن أُوَبِّخَها، صِرْتُ أُتمّمُ مَهامَّ دورا لتستمتعَ هي بحياةٍ حُلْوة. كانتْ أمينةً وتكرهُ إزعاجي. وكم تمنّتْ لو أمضتْ سنةً برفقةِ آنياس قبل أن نتزوّجَ لتتعلّمَ منها، فآنياسُ كانتْ على قَدْرِ المسؤوليّةِ من كلّ النواحي.

أمّا الخالةُ بتسي فأحبّتْ دورا كثيرًا، لكنَّها كانت كُلّما طلبتُ منها أن تُعلّمَ دورا إدارةَ المنزل، طلبتْ منّي التحلّي بالصَّبْر.

في هذا الوقتِ، كنتُ أتابعُ العملَ بكدٍّ وجُهْدٍ في الدراسةِ والمكتب. وفي وقتِ الفراغِ، بدأتُ أكتبُ قِصَصًا. وحين ازدهرَ المبيعُ، توقّفتُ عن العَمَلِ في مكتبِ الدكتور سترونغ. كنتُ أحبُّ دورا كثيرًا. كانتْ متألّقةً وسعيدة، رغمَ أنّني كنتُ أشعرُ في بعضِ الأحيانِ أنّها لا تُشاطِرُني الاهتمامَ بعملي وأفكاري.

في نهايةِ السنة، ضَعُفَتْ دورا ولم تَعُدْ قادرةً على الرقصِ أو صعودِ السلالم. خِفْتُ وقلقتُ على صِحَّتِها المتدهورة. اهتمّتِ الخالةُ بتسي بالعنايةِ بها ولكنَّها لم تتحسّن.

العثور على إميلي

ذاتَ يوم، دعتْني السيّدةُ ستيرفورث إلى منزِلها. التقيتُ خادِمَها ليتيمر الذي قال لي: «أخذَ ستيرفورث إميلي إلى بُلْدان عدّة. أحبَّها وكان الجميعُ يتطلّعُ إليها أينما حَلَّت. ولكنّ ستيرفورث تَعِبَ وتركَها في قَصْرٍ في مدينة نابولي. غضِبَتْ إميلي عندما علِمَتْ أنّه تَخَلّى عنْها وهَرَبَتْ. ولم نَعرِفْ عنها شيئًا منذُ ذلكَ الحِين.»

«يا لكِ من مِسْكينةٍ يا إميلي! ولكنْ أين جايمس؟» سألتُه.

«إنه يُبْحرُ بالقُرْبِ من إسبانيا.»

شكرتُه على المعلوماتِ وانصرفتُ.

في الليلةِ التالية، زُرْتُ السيّدَ بيغوتي وزوّدتُه بالأخبار الجديدة.

فسألني: «هل تعتقدُ أنّها ما زالتْ على قَيْدِ الحَياة؟»

«نعم، وأظنُّ أنّها ستعودُ إلى لندن. أنا مُتأكِّدٌ أنّها ستُحاولُ الالتقاءَ بصديقتِها مارتا،» أجَبْتُ بكُلِّ تأكيد.

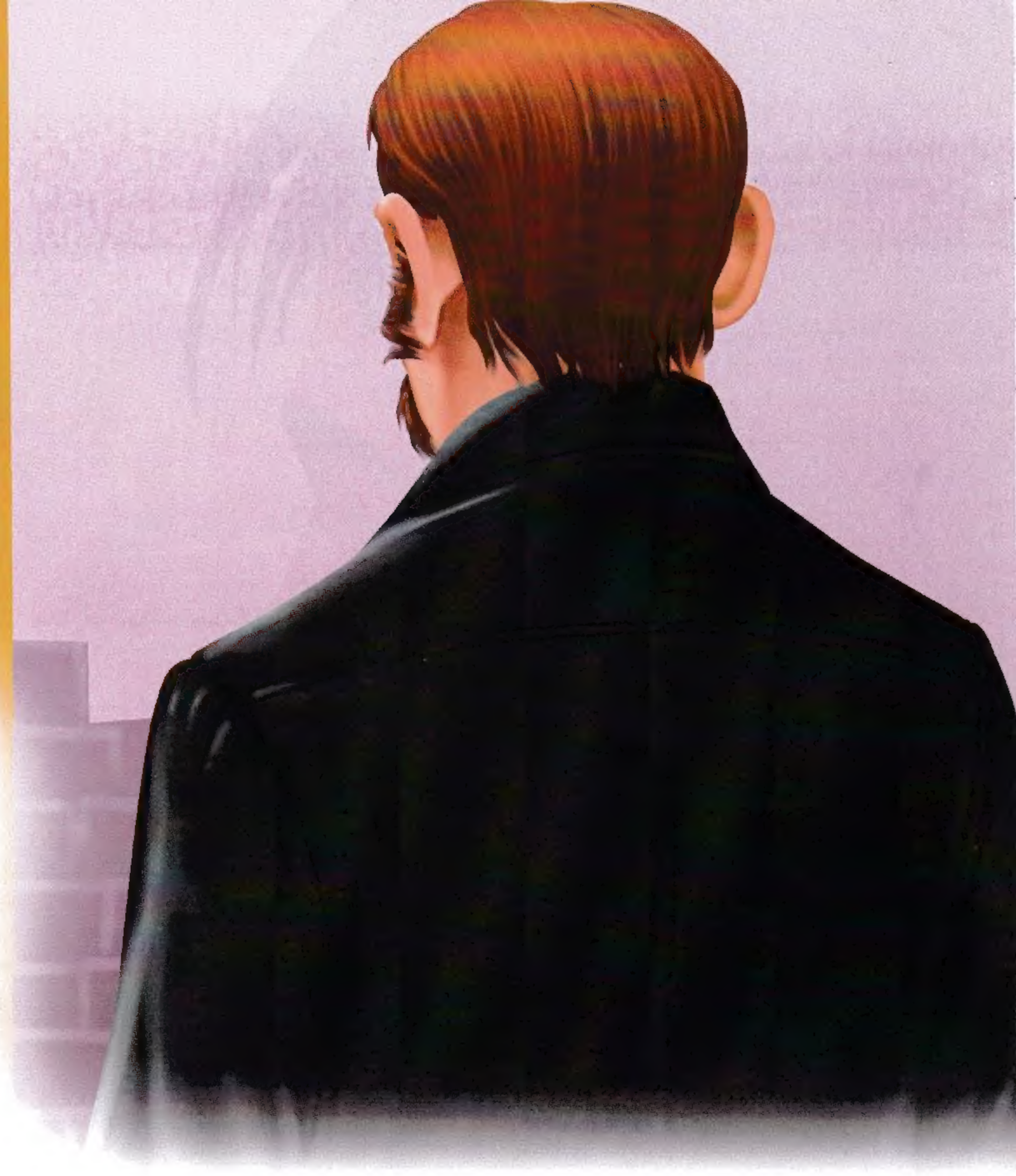

«أعرفُ أين تَقْطُنُ مارتا،» ردَّ السيّدُ بيغوتي.

ذهبْنا والْتَقَيْنا بمارتا. أطْلَعْناها على قِصّةِ إميلي فوعَدَتْنا بأنْ تُخْبِرَنا إذا ما لجأتْ إميلي إليها.

في تِلكَ الأثناء، كَتَبَتْ عائلةُ ميكاوبر رِسالةً إلى ترادلز وإليّ. فقد كانوا يُعانونَ من مَشاكلَ ماديّةٍ بسببِ أورياه هيب.

بعد وقتٍ قصير، جاء السيّدُ ميكاوبر في زيارةٍ لنا. وكان يبدو مُحْبَطًا وقلِقًا.

قالَ لنا: «أنتما تَنْظُرانِ إلى رجلٍ فَقَدَ احترامَه. أنا أعملُ لدى ذلك الحقيرِ، هيب. إنّه مُحْتالٌ وكاذِب. لقد خَدَعَ أُناسًا كثيرين. وبمُساعدتِكُما سأكشِفُ كُلَّ شيء.»

ثمّ أطلعَنا السيّدُ ميكاوبر على أسرارِ نشاطاتِ أورياه هيب غير القانونية. وتَقرّرَ أن نَذْهَبَ أنا وترادلز والخالةُ بتسي والسيّدُ ديك لنلتقيَهُ في منزلِ آنياس في كانتربري بعد أسبوع. وأكّدَ ميكاوبر أنّه سَيَحْضُرُ أيضًا ويجلِبُ معه إثباتاتٍ عن محاولاتِ الغشّ كُلِّها التي يقومُ بها هيب.

ذاتَ يَوْم، وفيما كان يَحدُثُ ذلك، أتت مارتا لرؤيتي وكانت تبدو مُتَحَمِّسَةً. اقتادتني إلى شَقَّةٍ في حيٍّ فقيرٍ حيثُ تعيشُ إميلي. أخذتْني إلى غُرْفَتِها وانْضَمَّ إلينا السيّدُ بيغوتي استجابةً لرسالةِ مارتا. وعلى الرّغم من القلقِ الشديد، قبّل بيغوتي إميلي بحرارةٍ ما إن رآها وأعادَها معه. وقرّر أن يُسافِرَ إلى أستراليا مع عائلتِهِ وأن يبدأ حياةً جديدة.

وكما تمّ الاتّفاق بيني وبين السيّد ميكاوبر، توجَّهتُ إلى منزلِ السيّد ويكفيلد في كانتربري بصحبةِ ترادلز والخالة بتسي والسيّد ديك. فتحَ السيّدُ ميكاوبر البابَ واستقبلنا في غرفةِ الطعام. نظرَ هيبُ إلَيْنا واحمرّ وجهُهُ غَيْظًا.

ثمَّ تكلّمَ ترادلز بنبرةٍ هادئةٍ وجدّيّة: «أنا محامي السيّد ويكفيلد وأتّهمُكَ بالتزويرِ والغِشِّ تجاهَ سيّدِكَ وأشخاصٍ آخرين حَوْلَك. إنني أملكُ كُلَّ الإثباتاتِ التي تُدينُكَ. هل لديكَ ما تقولُه؟»

حدّقَ هيبُ فينا بحِقْدٍ. تقدّم السيّدُ ميكاوبر حامِلًا وثيقةً في يدِه ثمّ قَرَأَها بصوتٍ مُرْتفع. إنّها بُرْهانٌ على أن هيب قد زَوَّرَ توقيعَ السيّدِ ويكفيلد وسرقَ مالَه. واكتشفْنا أيضًا أنّ هيب هو الذي غَدَرَ بالخالةِ بتسي وسرقَ الأموالَ التي اسْتَثْمَرَتْها. كما أنه خَدَعَ أشخاصًا كثيرين واحتالَ عليهم.

طلبَ ترادلزُ من هيب إعادةَ المالِ المسروقِ كُلِّهِ وإلاّ فإنه سيستدعي الشُّرْطة.

لم يَعُدْ أمامَ هيب أيَّ خيار، فقَبِلَ بإعادةِ المالِ كاملًا. تملَّكَهُ غَضَبٌ شديدٌ ولكن لم يكنْ باستطاعتِه أن يفعلَ أيَّ شيء. فأدلَّتُنا واضحةٌ وتكفي لاعتقالِه. بعد تلك الحادثةِ، خرجَ أورياه هيب ، لحُسْنِ الحظّ، من حياتِنا إلى الأبد.

أمّا السيّدُ ميكاوبر فقد قرّرَ الانتقالَ مع عائلتِهِ إلى مدينةٍ جديدة. فَعَرَضَتْ عليه الخالةُ بتسي المبلغَ اللازمَ لينضمَّ إلى السيّد بيغوتي وإميلي في أستراليا.

وفي خلالِ تلك الفترة كلّها، كنتُ قلقًا جدًّا على دورا المريضة. وقد أكّد لي الأطبّاءُ أنّها لن تعيشَ طويلاً. لم أَكُنْ قادرًا على تَحَمُّلِ فكرةِ فراقي عن زوجتي في القريبِ العاجل.

ذات مساءٍ، جلسْتُ قُرْبَ سريرِها وبكيتُ. قالت لي بنُعومَتِها المُعْتادة: «لا تبكِ يا ديفيد. لعلّ ما يجري أفضلَ حَدَثٍ. كنتُ يافعةً من دون خِبْرَةٍ ولم أكنْ جديرةً بأن أكونَ زوجتَك.»

«دورا، أرجوكِ، لا تتفوّهي بكلامٍ كهذا. كنتُ سعيدًا معك.» لم أتوقّفْ عَنِ البُكاء. أردتُها أن تعيشَ من أجلي، ولكن كان يظهرُ أنّها استسلمت.

ثمّ، طلبتْ منّي أن أنادي آنياس.

كنتُ جالسًا قُرْبَ النارِ عندما نزلتْ آنياسُ السلالم. رأيتُ الأسى على وَجْهِها، ففهمتُ أنّ دورا فارقتِ الحياة.

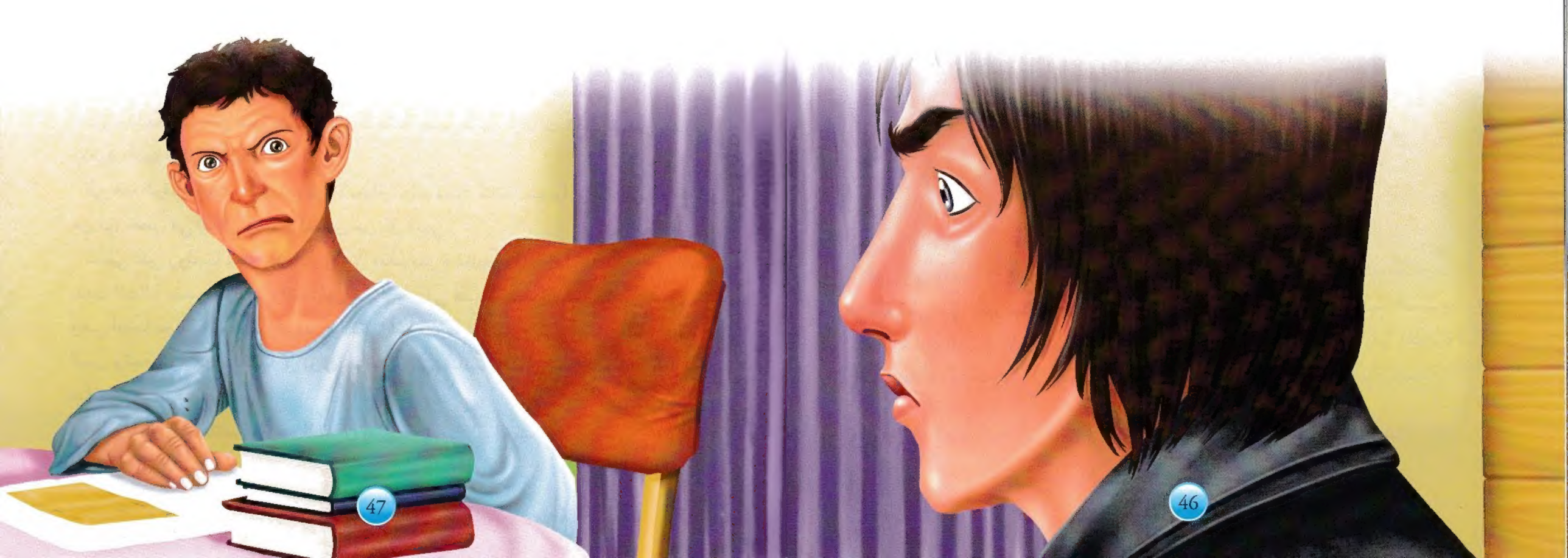

بعد وفاةِ دورا، شعرتُ أنّ حياتي قد وصلتْ إلى نهايتِها. أتَتْ بيغوتي إلى منزلي لكي تُمْضيَ بعضَ الوقت معي. بعد بضعةِ أيّام، قرّرتُ السَّفَر. فذهبتُ إلى يارموث للقاء هام قبل أن أُغادِر.

في ذلك النهار، هبّتْ عاصفةٌ قويّة. أبحرَ هامُ ليُنقذَ بحّارًا منكوبًا، ولكنْ للأسف، غَرِقَ الاثنان. والغريبُ في الأمر أنّ البحّارَ هو ستيرفورث. نظرتُ إلى جُثَّتَيْ صديقيَّ بِحُزْنٍ وأسى. فقد تَسَبَّبَ ستيرفورث بالأذى لهام حين هربَ مع إميلي بينما ماتَ هام وهو يحاولُ أن يُنقذَه. شعرتُ بالأسى الكبيرِ على هذهِ الحياة.

رحلتُ من إنكلترا وسافرتُ ثلاثَ سنين إلى أن تحسّنتْ صِحَّتي واستعَدْتُ مزاجي المَرِح. بقيتُ طيلة تلك الفترةِ على تواصُلٍ مع آنياس. واكتشفْتُ خلالَ تلك السنواتِ أنّني أُحِبُّها كثيرًا وكنْتُ آمُلُ ألاّ تكونَ قد تزوّجت!

عند عَوْدتي، توجّهتُ أوّلًا إلى دوفر لأرى الخالة بِتْسي. ثمّ ذهبتُ للقاء آنياس فعبّرتُ لها عن حُبّي وطلبتُ يَدَها. وافقتْ بفرحٍ كبيرٍ وأكّدتْ لي أنّها لطالما أحبّتني.

تزوّجْنا بعد أقلّ من أسبوعين. فَرِحتِ الخالةُ بتسي كثيرًا. وكانت تُحِبُّ آنياس حُبًّا جَمًّا وتعرفُ أنّها الشريكةُ المناسبةُ لي.

في هذا الوقتِ، انتشرتْ كُتُبي في الأسواق، وأصبحتُ كاتبًا شهيرًا. ولم أعانِ مع آنياس من أي نَقْصٍ في المال. أحببْتُ آنياسَ من كلّ قلبي.

مَضى على زَواجِنا عشرُ سنوات. ونحنُ نَنْعُمُ بفرحٍ عظيم، وقد رُزِقْنا ثلاثةَ أولادٍ رائعين. بَلَغتِ الخالةُ بِتْسي الرابعة والثمانين من العُمُرِ في هَذِهِ السنة. إنها الأكثرُ سعادةً بيننا. وهي أيضًا عَرّابة بتسي تروتوود – ابنتي! أمّا مُمَرّضتي العزيزةُ بيغوتي، فقد طَعَنَتْ في السّنّ وتجعَّدَ وجهُها، لكنها لا تزالُ حاضرةً إلى جانب أطفالي تمامًا مثلما كانتْ إلى جانبي.

أجلِسُ الآن إلى مَكْتبي وأرجو اللّه أن يُديمَ سَعادتي إلى الأبد.

ديفيد كوبرفيلد

... انتقلتُ إلى بيتٍ جديدٍ أعيشُ فيه وحدي كرجلٍ راشد. وكان بَيْتي يُطِلُّ على النهر، فأحببْتُ العيشَ هُناك. غيرَ أنّي كنتُ أشعرُ بالوَحْدةِ في بعضِ الليالي. وكنت أشتاقُ إلى صديقتي العزيزة آنياس. فمعها أتحدّثُ عن كلِّ شيءٍ – عن المدرسةِ والمشاكلِ والأحلامِ والآمال.

بعد أيّامٍ قليلة، وصلتْني رسالةٌ منها. كانتْ في لندن مع أبيها وأورياه هيب. ذهبتُ إليهمْ في زيارةٍ واكتشفْتُ أنّ أَمْرًا ما يُقلقُ آنياسَ كثيرًا. فأعلمتْني أنّ أورياه هيب أقنعَ والدَها في أن يُصْبِحَ شريكَه في العمل: «ها هو هيب يضعُ يدَهُ على كلِّ شيءٍ وقد أمسى أبي تحْتَ رَحْمَتِه»...

صدر من هذه السلسلة:

- كنوز الملك سليمان
- رحلة إلى باطن الأرض
- عائلَةُ روبنسون السويسريَّة
- عشرون ألف فرسخ تحت الماء
- أوليفر تويست
- أحدب نوتردام
- أطْفالُ سِكَّةِ الحَديد
- الفرسان الثلاثة
- ديفيد كوبرفيلد
- الحديقة السريّة
- توم سوير
- كتاب الأدغال

ISBN: 978-9953-37-936-4

تم تصنيف هذه القصة وفق معايير « عربي 21 » لتصنيف كتب أدب الأطفال العربي، وقد صنف مستوى « ص »، « متقن أدنى » السنة السابعة والثامنة

أكاديميا